خلفية ومقاصد الصِّراع الطويل بين العُبَيديين والأُمويين،

(القسم الأَول)

عبد الرحمن الفاسي

هناك حقيقة تاريخية لها خلفية وأَبعاد أَضفت عليها جهارة ونصاعة، حتى إنها اختصرت في عبارة خفيفة، فجاء على لسان المؤرخين الأَجانب من غير التواء «أَن البيزنطيين فشلوا حيث نجح المسلمون في ربط شمال أَفريقيا بالدورة الاقتصادية العالمية».

وهذه الحقيقة تقوم على خلفية الازدهار الاقتصادي والعمراني، والفكري الذي خرج منذ القرن الثاني الهجري بأَرض الإسلام المشرقية من طور البداوة إلى طور الحضارة، وامتدّ رواقه في مناطق الفتوح على مراكز الحضارات الأُولى ديناً ولغة، وطرازَ فنٍّ، وعطاء فِكر، ثم انتهي مدار ذلك الاشعاع في ازهاراته الأُولى على دنيا الشمال الأَفريقي ازدهاراً بنفس ذلك العطاء، فخرج بها بخطوات سريعة من مجّمعات

الخصاص وخيام الشعَر والأَوبار إلى مجتمعات المدائن والقصور، وبهيج الرياض، وفاخر العلالي والدور، وهي حقيقة ماثلة ولو أَنّ بعض تلك الأَرجاء ظلت بعض قسماتها مصطبغة بطابع البداوة في المشرق والمغرب على السواء، كما سجّل ابن خلدون في زمانه عن حضارة البداوة وحضارة العمران. ولا يحتاج المقام إلى تفصيل القول في مسلّمات تاريخية تقول إن المشرق قد كانت فيه مع إشراقة الإسلام بعض معالم الحضارات القديمة ماثلة كما في المنطقة الساسانية القديمة، وأَعني منطقة ما بين النهرين وإيران، والمنطقة البيزنطية القديمة الشاملة لمصر وسوريا[1] بوجه خاص، ولا سيما ما يرجع من تلك المعالم إلى ما بين الفترة البيزنطية الساسانية والحقبة الإسلامية، فقد كان العرب أَمام هذه الآثار الباقية بين محافظين مرمّمين مجدّدين، وبين منشئين مؤسسين، وتبرّج صنيعهم اندفاعا عمرانيا ولا سيما في مصر، وانبثقت عن ذلك المدارسُ الفنية، تبعاً لظاهرة التأثّر والتأثير الماثلة في بعض الآثار المعمارية، وفي بعض الفنون الصناعية التي أَثْرت علم الآثار بالنظريات والمقارنات وخلقت فرعاً جمالياً في عِلم المعمار. أما في المغرب فقد استقلّ الاندفاع العمراني العربي بِسماته الفنّية الخاصة وترتيبات في مرافق مُدُنه ومنازله، مما ميّزه عن المعمار المشرقي بجمالية طابعه الخاص، مع ما هو معروف من تشابهها في بعض ترتيبات المرافق الدينية المشتركة، ومردُّ ذلك الاستقلال الفني إلى أَنّ العرب الفاتحين لم يصادفوا من عمارة حضاراته الأُولى غير أَسماء، وآثار، وبقايا أَطلال وأَنقاض، كـ«لَبْدة» و«صبْراتة» الفنيقيتين[2] و«قُوليبلِيسْ»، و«قَادِس» و«طَنْجَة»، و«سَبْتَة»، وحتى «قَرطَاج» التي تحصنت بها فلول بيزنطة، فقد تداعت معالمها عند سقوطها في يد الفاتحين العرب، حتى لَيمكن أَن يقال إنّ جميع الهياكل الحضارية غابت عن العيان، وذلك لإلحاح التدهور العام الذي ضرب أَطنابه في هذه الأَرجاء منذ عهد الونْدَال. فلا يصح القول بأَن هناك ما

1) المعروف أنّ لمعالم السورية منها قد خربتها الحروب الصليبية ولم يجدد بعضها إلاّ على عهد الدولة الأتابكية.

2) عرفت عند القرطاجنيين باسم «لبكي»، ثم حرّفها اليونانيون غير ما مرة إلى أن صارت «لبتس مانيا» وعرّبها العرب باسم لبْدة.

يُطلق عليه تأثّر وتـأثير، وخصوصـاً في المغرب الأَقصى، فـإن وُجـدت بعض مَشـابـه، فليس من الضروري أَن تُعتبر تقليداً لفترة سابقـة[3]، إذ الواقع أَن البـداوة استغلظت على الحضارة وزحفت الصحراء على المدينة، وساد مختلفَ الميادين تدهور عـام، أخفق أَمامه غزو «جُسْتنيان» حيث انهارت حملاته البيزنطية بين الصحاري والجبـال، ووقف توسّعه عند المناطق الساحلية، وفي بعض الأَرياف، وذهب أَيضاً في خبر كان مـا قيل

3) يرى أَنْدْري جُولْيان أن الأَغالبة قد استوحوا من بعض الحصون البيزنطية وخاصة في «بلزمة» و«باغـايـة» بعض النماذج لبناء الرباطات على بعض السواحل مثل «سوسة» و«المناستير»، ولإقـامـة أسوار منيعـة كما في «صفاقس»، والواقع أنه لم ينظر إلى أَبعد، ولم يحسب أَن نمـاذج ربـاطـات بَني الأَغلب قـد تكون متـأثرة بقسمات بعض المباني الفارسية التي احتذاها العرب في مبانيهم ببغداد، ويرجّح هـذا أَن الـدولـة الأَغلبيـة حينما كانت تابعة في بدايتها للعباسيين في بغداد، كانت تقتدي بكل ما هو عباسي، ويظهر ذلـك بوضوح في نظامهم الحكومي الذي رتّب طبق الترتيب العباسي، والأَوضح من هذا أَن من بين الدراسـات الشهيرة عن الرباطات الإسلامية من سوريا إلى رباط الفتح، دراسة عن الرباطَيْن «سوسة» و«المانستير» بـالـذات، وكِلاهما شُيّد في عهد واليَيْن عباسيين بالقيروان، وعنيت دراسة الآثار بتحـديـد مميزاتها، والمقـارنـة بينهـا وبين الحصون البيزنطية، باعتبار أَن الرباطات الإسلامية كلها على تخطيط واحد، ونَسَق متّحـد، بـالنظر لمهمتها المزدوجة، حيث أُقيمت خلوات للعبادة، وحصوناً للدفاع والاندفاع، وأسفرت المقارنـة على أَنـه إذا كانت هناك بروج وشرفات مراقبة واستطلاع بحري في هذه وتلك، فـإن الإسلاميـة تمتـاز بتعـدد البروج أَحياناً، كما تمتاز بالتجهيزات الإسلامية الخاصة بها، وذلك ما يرجّح الافتراض بأَن ما للعبـاسيين ولـدولـة الأَغالبة بحكم تأثرهم لهم إنما مردّه إلى المنشآت الايرانية، ورباطات آسيا الصغرى، فآية الشرق العربي قائمة عند أَهل هذا الشأن، فلا وَجْه لقصْر التوجّه على بيزنطة.

وللأُستاذ جُوليـان قولـة في الزخرفـة حيث رآهـا مسيحيـة، وذلـك لمـا لاحـظ من نقل الصوَّر على شكل فروع وورود، مع أن المعروف أن العرب قبل الإسلام نحتوا وشكّلوا غـالبـاً في نطـاق عقيـدتهم الوثنيـة، وحينما جاء الإسلام بالتوحيد نبذ ما يخـالفهـا، وأبقى على مـالا يرتبـط بـالعبـادة وليس على صورة ذي نَفْس، فقد تغاضى عنه المسلمون، كالثمار والنباتات، كما نشاهده حالياً في العراق وإيران. ويتعيَّن الالتفات إلى أَن علماء الآثار اعتبروا الفنَّ الإسلامي فنّاً زخرفياً من أَساسه، وميَّزوه بهذه الصفة، ملتفتين إلى آيات كريـة **﴿يـابَني آدم خـذوا زينتكم عنـد كل مسجـد وكلوا واشربـوا ولا تسرفـوا إنـه لايحب المسرفين، قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينة اللـه التي أخرج لعبـاده والطيبـات من الرزق قُلْ هي للـذين آمنوا في الحياة الدنيـا خـالصـة يوم القيـامـة، كذلـك نفصّل الآيـات لقوم يعلمون﴾** [سورة الأعراف،32]. وكل هذا يوحي بتوفّق أهل هذا الشأْن في نعت الفن الإسلامي بالزخرفـة، ومن هنـا نجد الزخرفة الإسلامية غنية بالأَشكال النباتية، واستجدت عند المزخرفين ابتكارات زخرفية نباتيـة وحيوانيـة أيضـاً كالطيـور لاستبعـاد معنى العبـادة في ذلـك. وجـاء عنـالسَّلَف استعمال الريـاش والأَواني المـزخرفـة

عن هيمنة الكنيسة، فقد تقلّص ظلها بتقلّص نفوذ «بيزنطة» لخصوماتها، واختلاف فِرَقها الدينية، وبدا مع الزمن أنّ بعض القبائل البربرية ظلّت متمسكة بالوثَنية، وبعضها استيقظت فيها بعد همودها. ويضاف إلى ذلك انتشار الفوضى والفساد الإداري في الحكومة البيزنطية، وتفشّي الأَوبئة الفتاكة التي عرفها النصف الثاني من القرن السادس للميلاد، وكل هذه الأَمراض الاجتماعية قد عملت عملها في تقلّص عدد السكان، لا سيما وحروب «جُسْتِنيان» ذهبت بالكثير من الملايين، وعلى هذه الوضعية وفي هذه الحال كانت لدى دخول الفاتحين العرب، فليس من الغريب أَن يكون دخول المبادئ الإسلامية إلى هاته الساحة الخراب فاتحة نشور وحياة للعمران والاقتصاد، فيعرض علينا التاريخ صورة مشرقة لهاته الساحة في عهد الإسلام الذي تَغيَّر معه وجه هذه الدنيا المغربية[4] وانتقلت وجهتها من حال إلى حال، فقد كان توجّه الفتوح العربية في اتجاه المغرب البربري أو كما يقال أفريقيا البيزنطية بإِثْر فتح مصر واستسلام الأَسكندرية عام 22 هـ الموافق 643 بعد جولة استطلاعية قادها عقبة بن نافع في منطقة «بَرْقة»[5] وشيوع الأَخبار عن انتشار العرب خارج جزيرتهم، وما أبدوه من شجاعة وما قيل عن دينهم من عدالة وسماحة المعاملة

والصوَر. ومن الزخرفة الإسلامية الزخرفةُ بالأَشكال الهندسية كالمثلّثات والمربّعات المتراكبة، والدوائر المتكسرة والهلالية، ولهم فيها ابتكارات باهرة معروفة، وتنويع في أشكال الرسوم الهندسية، وأصبح من ميزاتها تلك التراكيب التي تمثّل أشكالاً نجمية متعدّدة الأَضلاع. وعلى كلّ حال فالزخارف الإسلامية ليست وحدات منفصلة مكرَّرة كما هو الشأن عند غيرهم. وبهذا كله فالفن الزخرفي الراجع إلى الأَغالبة إنما هو فن إسلامي ينظر إلى العباسي، لنفس ما قلناه عن الرباطات من أنهم قلَّدوا فيها العباسيِّين لأَنهم كانوا يحتدونهم في كل شيء.

4) للمغرب عدة إطلاقات في المصادر التراثية :
فيقصد بالمغرب ما يقصده الجغرافيون والمؤرخون القدامى، حيث يطلقون كلمة المغرب على البلدان التي تبدأ غرب مصر، ويشمل ذلك عندهم حتى الأَندلس، والمعروف أن ابن خلدون يطلق كلمة المغرب على المنطقة الموجودة بين عنّابة وطَنْجَة، ويطلق كلمة أفريقيا على المنطقة الموجودة بين قسْطَنْطِينة وطَرابلُس، وهو إطلاق شائع. أما المصادر التي تحدثت عن أفريقيا فكانت تعنى بكلمة أفريقيا المنطقة التي تبدأ بعد فَزّان إلى طنجة. ومقصودنا هنا بالساحة المغربية ما يبتدئ ببرقة حتى الجزيرة الأَندلسية وأعني تبعا لمسيرة الفتح العربي.

5) البيان المغرب ج 1 ص 8 و9 و«المؤنس» ص 22.

واحترام لأَهل الكتاب ومعابدهم وأعراضهم. وكل هذه المزايا الإسلامية، والمقومات العربية، يتعيَّن اعتبارها عند استعراض أَخبار جولات أَجناد المسلمين الأُولى في «بَرْقة»، و«طرابلس»[6] حتى جبل «نفّوسة». فقد انتصرت عمليات الفتح العربي فيها بالرغم من أَنها كانت مجرَّد جولات دعوة، وإن اقتضى الحال فمجرَّد سَرايا كرٍّ، وفَرٍّ، في المناطق المذكورة التي اكتسحها المدّ الإسلامي من جنوبها وجهات في غربها، فلاقى الترحيب والاستسلام من بربرها دون مقاومة. وكان ذلك على عهد والي مصر، عمرو بن العاص وأَمير المومنين عمر بن الخطاب على قيد الحياة. وابتداء من «بَرْقَة»[7] التي سار إليها الوالي ابن العاص، فاعتنق أهلها الإسلام طوعاً، ومنها إلى «زويلة»[8] التي وجَّه إليها عقبة بن نافع الفهري، فجنح مابينهما وبين «بَرْقة» إلى الإسلام عن طواعية ورضا. وتابع ابن العاص طريقه إلى «طرابلس» معرِّجاً على «سَرْت» (وهي غير «سرت» الحالية)، فمرَّ بها مرّ الكرام لتسليمها وإسلامها، ثم عطف منها على «لَبْدة»[9] شرق طرابلس، فوجدها خراباً يَباباً بعد سابق عزِّها وعظمتها، فلم يكن بها عند قصدها غيرُ شرادم من البربر والروم قابعة في الخرائب التي حواليها، فتجاوزها مواصلاً سيره نحو طرابلس، ومنها وجّه عمرو ابن العاص بُسر بن أرطَاة إلى «ودَّان»

6) فينيقية، ويقال لها قرطاجنية، وكانت زمن الفتح تابعة لبيزنطة، وكان يطلق عليها «تريبوليتانوس» أي إقليم المدُن الثلاث، وهي لبْدة، وطرابلس، وصَبْراتة، ثم اختُصرت إلى «تريبولي». وبعد الفتح الإسلامي أطلق العرب عليها اسم «أطرابلس» كما جاء في جواب عمرو بن العاص لسيدنا عمر ابن الخطّاب حين استأذنه في الدخول إلى أفريقيا. ولكثرة الاستعمال تُركت الهمزة فقيل طَرَابلس.

7) بَرقة كانت تعرف «بأنطابلس»، وهي كلمة رومية معناها خمس مُدُن، وبرقة واحدة منها.

8) كانت شهيرة بتجارة الرقيق، وهي عاصمة بَرقة، وكان يقال لها زويلة السودان، فرقاً بين زويلة التي بناها عُبيد الله المهدي، وزويلة السودان المذكورة صارت مجرّد ضاحية في العهد الفاطمي.

9) شرق طرابلس، وقد توارد عليها عدة أَجناس منذ أسسها الفنيقيون، ثم أصبحت تابعة للنوميديين، وكانت تبعيتها بدفع جزية فقط، ثم تحالفت مع روما للتخلص منهم، وبدخولها في قبضتها صارت من أفريقيا، ثم احتلها الونْدَال، وبعدهم احتلها البيزنطيون سنة 533. وهم الذين زخرفوها، واتخذوها عاصمة لمنطقة طرابلس، وبذلك تضخمت بأشكال وأخلاط من السكان أيام عزها.

فـ«صبْراته»[10] التي قاد السيْر إليها عبد الله بن الزبير، ثم منها إلى «شروس» وهي من عواصم البربر القديمة في جبل نَفُّوسَة الذي كان آخر المطاف في هذه الجولات الأُولى التي كانت كلها مكاسب إسلامية جلية لم يسع المستشرقين إلا الاعتراف بأَنها تعبّر عن اتحاد الإسلام مع أفريقيا الشمالية وبأَنها كانت[11] قفزة في المجهول، جعل «الثورتين الفرنسية والروسية بالنسبة إليها متواضعتين جداً».

نعم كانت «طرابلُس» التي تولّى السيْر إليها عمرو بن العاص بنفسه، «وصَبْراتة» هما اللتان امتنعتا عن التسليم في بادئ الأمر نظراً لأَهميتها المعمارية والتجارية، وقد أعنتت طرابلس لأَكثريتها الرومية سَرية عمرو بن العاص بمشقّة حصارها نحواً من شهر، وامتناعها وراء الأَسوار المحكمة التي أَحاطها الروم بها عند احتلال الشمال الأَفريقي، ولكن رجال عمرو تمكنوا من اقتحامها براً وبحراً[12].

وأَما «شرُوس» الآنفة الذِّكر التي أشير إلى السيْر نحوها إثر «صبْراتة» فقد كان كل أهلها نصارى، ولا تشير الرواية التاريخية إلى استسلامها بصلح أو عُنوة، ومنها استأذن الوالي ابن العاص الفاروقَ عمر بن الخطاب في السير نحو أفريقيا[13].

---

10) فنيقية، وكانت تقع غرب مدينة طرابلس وأعظم منها عمرانا ومدنية.

11) شَارْل أَنْدَري جُولْيان في تاريخ أَفريقيا الشمالية ج 2 الترجمة ص 13 تحت عنوان الفتح العربي.

12) انظر فتوح مصر والمغرب، لابن عبد الحَكَم ص 231. ويظهر أَن عملية البحر هذه لم تكن بالحركة المخططة نظرا لأَن الأسطول الإسلامي يومئذ لم يكن بالمستوى الذي يدفع به لمواجهة البحرية البيزنطية، اللهم إلا إذا كان من المقطوع به غياب الأسطول البيزنطي عن تلك المنطقة بالذات.

13) من الواضح أن ابن العاص رأى من التدبير الحربي ألاّ يتعمّق سيراً نحو الغرب لأَنه سيلاقي مدناً كثيرة، وتجمعات للروم والبربر، واستعدادات بيزنطية من ناحية البحر، وقد صرح بما ينبئ عن هذا في كتاب «بشارة الفتح» الذي وجهه إلى أَمير المومنين عمر بن الخطاب حيث جاء فيه أن ليس أَمامه إلا بلاد أَفريقيا، «وملوكها كثير وأَهلها في عدد عظيم»، وذلك ما دلت عليه الأحداث حين متابعة الجيش الإسلامي حركة الفتح فيما بعد.

وهكـذا اقتضت المرحلـة الأُولى وهي مرحلـة إيـلاف وإينـاس، أن يقتصر العرب في هـذه الجولات على عقود صلحيـة أي من غير تمسـك بـالأَرض، ففُرضت الجِـزيـة على الروم الذين لم يستجيبوا للدعوة، وأَما البربر الذين سارع معظمهم إلى الإسلام، فقـد فُرضت عليهم الزكوات، وما هو حق للسائل والمحروم في أموال الأَغنياء.

ومن هذا القبيل أَن القيـادة الإسلاميـة رأَت أَلا تفرض في عقود الصلح على من أسلم من ضعفـائهم غير مـا يطيق[14]، فـاكتفي من بعضهم بـالاستسـلام والترحيب كأَهـل مدينة «سرت»، لأَن استسلامها كان من غير تكليف المسلمين أَي عنـاء، فلم يجنح معهم لعقد وإبرام.

وقـد كانت منـازل السـواد الأَكبر من هـؤلاء البربر بصحراء[15] مقـاطعـة طرابلس وهي : «لواتَة»، و«نفُّوسـة»، وبعض من «زنَـاتَـة»، و«نفْزَة»، و«زواغَـة»، وكلهـا بتريـة، وبينهم فصيلة من «هُوارة» البَرَانصية.

14) وقد يلاحظ ما جاء في بعض الروايات أَن عُقْبـة صـالح أَهل بَرْقـة على 300 رأس من العبيـد. ويقول البكْري (المغرب ص 47) «إنها ليست بجزيـة ولا خَرَاج». وقـد يحتـاج تـأويل البكري إلى توضيح من حيث إن لواتـة «أَهـل برقـة» قـد أسلم أَكثرهم، ولا تُفرض الجـزيـة على مسلم، ولكن مـا جـاء في بعض الروايات من أَن أَهلها كان لهم نوع استقلال باتفـاق مع بيزنطـة على أَداء مبلغ سَنَوي، فقـد أَصبح من الواضح أَن عُقْبة أقرّ اتفاقه معهم على نفس الوضعية التي كانت لهم مع بيزنطة. ويلاحظ في المقام أَيضا أَن العَبيد المصالح بهم كانوا من أَبنائهم، وهذا يتنافى مع عادة العرب الذين لم يعرف عنهم أَنهم يأخذون الأولاد عوضاً عن الجزيـة، وقـد قيل في توضيح هـذا إن أَهل برقـة لم يطلب منهم دفع أَولادهم، بل هم الذين طلبوا ذلك والتزموا بـه من ذات أَنفسهم عوضـاً عن المـال السنوي، وسجلوا ذلـك على أَنفسهم في وثيقة الصلح، وإنما أَطلق اسم الجزية على ما فرض عليهم من مال أَو عبيد، مع أَنه لم يكن جزية لأَنـه كان عوضـا ـ كما أشير ـ عن وضعيـة الاستقلال التي أعطيت لهم كما كانت لهم مع بيزنطـة، وهـذا تخريـج قول البكري إن المفروض عليهم لم يكن بجزية ولا خراج.

15) والمعروف أَن قسماً من هؤلاء كانت منازلهم في المناطق الساحلية من طرابلس.
أنظر فيما يتعلق بهذا التوزيع : ابن عبد الحَكَم ص 170، 219، 224.
وابن خلـــدون ج 6 ص 104، 204، 230، 235، 264، 284، 290، 308، و ج 7 ص 109 ـ وانظر البكري ص 5، 7، 8، 9، 17.

وتعيّن، ونحن في مجال التوطئة للحديث عما اضطلع به الفتح العربي من ربط شمال أَفريقيا بالدورة الاقتصادية العالمية أَن نسجّل في المقام ما لَفت نظر العرب في اتصالاتهم بهؤلاء البربر من الاستعدادات الاقتصادية التي كانت متأصّلة فيهم، وخنق الاستعمار البيزنطي قابليتها وعطاءها، ومردُّ هذا الالتفات الذي يشاركهم فيه حتى المطّلع على أَخبارهم أَنّ هذه الاستعدادات تعتبر مقومات لإسهامهم ومشاركتهم ـ كما تقتضيه سماحة الإسلام ـ في عملية الإنعاش والإحياء. وهكذا نشير إلى أَن بربر هذه المناطق كانوا يُروّجون التجارة الصحراوية بين مناطقهم الداخلية والساحل. «فزويلَة» مثلاً كانت محطّة تقاطع طرق القوافل القادمة من الأَماكن المجاورة، كما يفيد البكْري، والإدريسي، وياقوت، وقد أشِيرَ في هامش سابق أَنها كانت تُتاجر في الرقيق. ولبربر «كوار» في هذه الصحراء الجنوبية تجارة في محصول معدن ـ الشبّ ـ الذي كان في منطقتهم، ووصلت تجارتهم في ذلك إلى «ورجلان»، و«مصر»، و«المغرب الأَقصى»[16]. وكانت الموانئ و«لبدة» بالذات منافذَ على المتوسط لهذه التجارة الصحراوية.

وعلى كل حال فقد غادرت أجناد المسلمين هذه المنطقة بمقاطعاتها الثلاث من غير أن يتركوا وراءهم حامية عندما جاءهم أمر الفاروق ـ رضي الله عنه ـ بالتوقّف، كما أنهم لم يفكروا في اختطاط معسكر أَو تشييد أي قاعدة لهم هناك، وأَعني على غير ما عرف عنهم من مبادرات الإعمار، أَينما حلَّت جيوشهم في البقاع التي استكانت لهم، وسنلاحظ مثلا من ذلك في إقامة معسكر القيرَوان، وغاية ما فعلوا عند وصول أَمر الفاروق أَنهم دبَّروا لهذه الأَرجاء إقامة عُقْبة بن نافِع والياً في مدينة بَرْقة، وقَيِّماً على المكاسب الإسلامية، وعلى بصيرة من موقف من رحَّب بالسرايا العربية، واعتنق الإسلام من أَهالي البلاد، وعلى رأسهم الكثير من قبائل «لواتَة»، و«نفّوسة»، و«نَفْزَاوة»،

---

16) انظر صورة الأَرض لابن حَوْقَل ص 39 ـ 40، ومعجم البلدان لياقوت ج 4 ص 486.

وغيرها ممن استجاب للدعوة الإسلامية، والمؤكد أنه كان من اهتمامات استطلاعه هذه الحركةُ التجارية مع الصحراء بصفة خاصة.

وهكذا كانت المغادرة وإيقاف العمليات عند فتح الجزء الشرقي من طرابلس في منطقة جبل نفّوسة، بالرغم من أن انسياحهم لم يلاق أي مقاومة جدّية، ولكن يظهر من نصّ رَدِّ الخليفة الفاروق ـ رضي الله عنه ـ على إخبار ابن العاص بما أفاء الله عليه، أنه تلمّح في لهجة إخباره نشوة القائد الطموح للانسياح والامتداد، وكأن الفاروق ـ رضي الله عنه ـ تطيّر من كلمة أفريقيا التي فَجأته بمعنى التفرق والانتشار، فهل كان ـ رضي الله عنه ـ محدَّثاً بما سيقع وهو صاحب الصيحة المشهورة ـ «ياسارية الجبل» وأَحسب بإزاء التخريج الذي أبداه المؤرخون أنه يَؤول إلى أن المحاولة بالرغم من مكاسبها لم تقع فيها مع الرُّوم بعد أي مواجهة، وهم ولا ريب بسبيل أَخذ العدّة، وسيلجأون إلى استفزاز من أَسلم واستسلم من البربر، وإلى حثّهم على التمرّد والردّة، وسينتصبون للمواجهة والدفاع، والاعتماد على بحْرِيتهم، وقِلاعهم المطلَّة على السواحل المتوسّطية.

وقد صادف وصول ابن العاص إلى مصر أن دُهي المسلمون بحادث اغتيال الفاروق، وكانت الأَحوال سواء في ساحة الفتوح، أو في المدينة المنوّرة آئلة بطبيعتها إلى الانبهار والتهّل، وعندما تولّى الأَمر ذو النورَيْن عثمان بن عفَّان عام 24 هـ ولّى عبد الله بن أَبي سَرح على مصر متنكّباً بذلك أمر سلفه الفاروق الذي يوحي بتحذير ابن العاص من متابعة الزحف على أَفريقيا، ويُفهم مما أقدم عليه الخليفة سيدنا عثمان أنه اعتمد على رؤيته الخاصة لظروف ما بعد اغتيال الفاروق على الوجه المعروف. وإزاء التحفظ الذي لا مَحيد عنه بالنسبة لنظرية الفاروق، عمد إلى استشارة جماعة من الصحابة[17]، فتحمس الكثير إلى السير في ركاب الوالي الجديد عبد الله بن أبي سرح قائد المسيرة نحو أفريقيا.

17) انظر ابن عبد الحكَم في فتوح مصر ص 362، والبَلاَذُري في فتوح البلدان ص 226.

وهنا ابتدأت مرحلة ثانية في الفتوح الإسلامية بتسيير الحملة إلى موقعة «سبيطْلة»[18] المشهورة عام 27 هـ، وكان ما قدّره الفاروق، حيث لاقت حاكم الرُّوم «كْرِيكُورِيُوس» - جرْجيرْ، وقد اتخذ من «سبيطلة» قاعدة، أو عاصمة له كما عبَّر الكثير، وذلك في وقت جنح فيه كما يقال إلى الاستبداد على إمبراطور بيزنطة، وجمع قواته البحرية في قاعدة قرطاجة،[19] والتحم الفريقان في عدة جولات كتب فيها الظفر للمسلمين، والانتصار الساحق الذي هلك فيه جرجير، ودمّرت قواته التي كانت جيشاً جرّاراً في مواجهة قلّة إسلامية تحدثت عنها الروايات العربية. ومع هذا النصر المبين اكتفى ابن أبي سرح بإجراء صُلح على جِزية مع وجهاء مدينة سبيطلة، ثم قَفَل راجعاً إلى المشرق قفول سلَفه ابن العاص من غير أن يخلّف والياً أو حامية.

وبالرغم عن تعليق القدامى والمحدثين[20] على هذه العودة المفاجئة التي لم تحقق - كما قالوا - أي مكسب في ولاية أفريقيا، فالواقع أَن نتيجة معركته حققت سيادة على (امتداد طويل من «سبِيطلة»، إلى «سُوسَة» شمالاً، ومن «سبيطلَة» إلى «قَفْصَة» شرقاً، فضلا عن شريط ساحلي من بلاد «قَابس» وشطّ الجريد جنوباً). والأهم من ذلك أن

---

18) تقع في غرب سفاقس، وجنوب القيروان، وهي قاعدة حاكم الروم في المنطقة الذي قيل إنه في هذا الحين كان قد استبدّ على بيزنطة وأصبح متنفدا من سبيطلة حتى طنجة.

19) انظر ابن خلدون في العِبَر، ج 2 ص 129 طبع القاهرة، وابن الاثير في الكامل ج 3 ص 43.

20) انطلق لسان المؤرخين الأَجانب بأسطورية ظهور القلة على الكثرة في معارك سبيطلة. وعلى كل حال فقد ظفرت القلة بجرجير والي بيزنطة أو إمبراطور سبيطلة كما ورد به التعبير، فالذي يهمّ هو أن كل تعاليق الدراسات الحديثة تشير إلى غير ما معركة باسم «سبيطلة» وتسجل أن ابن أَبي سرح صالح في الأولى «جرجير» نفسه، وفي الثانية ظفر به عبد الله ابن الزبير الذي أراده، فجدد ابن أَبي سرح الصلح مع وجهاء العاصمة، وقفل راجعا إلى المشرق قفول سلفه عمرو بن العاص، وبدون أَن يخلف وراءه - كما أُشير - واليا أو حامية بالرغم عما تجشم من شهداء في معارك طاحنة على مدى سنة كاملة حتى لَيبدُو وكأنه قضى على جهود ست سنوات صرفها العرب كرّاً وفرّاً بهذه الأرجاء في مقابل غنائم لا يصح أن توضع في ميزان يوم واحد من معركة سبيطلة الكبرى، ولكنهم التمسوا له عذراً رأوه واضحا في أن من

هذه المعركة فتّحت البصائر على أمانَة التعمير وهَدَت الأَبصار إلى مقوّمات إشاعة الازدهار في هذه الديّار، وكانت ـ كما سنرى ـ خلفية الصراع الطويل المتسطيل بين أُمويّي الأَندلس وبين العُبيديين. ولا ننسى بعد هذا أَن بعثة عبد الله بن أَبي سرح كانت لها ظروفها الخاصة منذ أظلمت الدنيا على ذي النورَيْن رضي الله عنه، فما كانت لتكون ـ كيفما سُمّيت ـ أكثر من جولة استطلاعية كالجولات قبلها على عهد سلفه ابن العاص، وحدث أن زاد الجوّ على ذي النورَين إظلاماً في أَثناء المعركة، وكل هذا ـ إذا لم تكن المعركة قد استنفدت غرضها ـ يمكن أَن يقال إنه عرقل قضية النصر الحاسم الذي يتيح الانسياح في المنطقة الأَفريقية، ثم ساد بعد ذلك فتور أَشبه بالجمود، عقبي لاندلاع الفتنة الكبرى التي ابتدأت بمقتل ذي النورين عام 35 هـ، وأسند أمر الخلافة بعده إلى الإمام علي بن أَبي طالب كرّم الله وجهه، وساعدت ظروف الخلاف المعروف بينه وبين مُعاوية بن أَبي سُفيان على ظفر ابن العاص مرة أخرى بالولاية على مصر، ولكن استفحال الخلاف بين الإمام، وبين منافسه معاوية، ثم اندلاع ثورة الخوارج، وما كان من اغتيال الإمام عام 40 هـ على ذلك الوجه المريع، وكلها أَحداث فواجع، لم تسمح بِطولها ولا بفداحة وقعها على جميع النفوس، أَن يقوم عمرو بن العاص بأَي شيء مهمّ في جبهة أَفريقيا، وإنما هي جولات أسندها ابن العاص إلى عقبة ابن نافع فانطلق من ناحية الغرب لردع بعض القبائل التي

بقي معه من المجاهدين كانوا قلّة، لن تقوى على متابعة معركة، أمام جحافل الروم والبربر الذين قد يستفزهم الروم للردّة، ولنقض ما تعاهدوا عليه والتزموا به، وبهذه الأَعذار لم يبق موضوع لتعليق أَندريه جُولْيَان (المصدر السابق)، الذي جاء بهذا العذر لينفَذ منه إلى التصريح بكلمة («فشل» ابن أَبي سرح خشية من هجوم بيزنطي مباغث يأتيه من القِلاع الشمالية المطلّة على البحر). وهكذا يتبين أَن أولياء الأمور في المدينة المنوَّرة تصرفوا على وفق الخشية التي تتالع بها قلَم اندريه جوليان، كما أَنه لم يعمق نظرته في النصوص العربية وهي المصادر الوحيدة في الموضوع باعترافه في مقدمة كتابه ليعلم ـ كما سنوضح بعد ـ أَن حركة ابن أَبي سرح قد استنفدت أغراضها، وأَن ملاحقة البيزنطيين في قواعدهم تتطلب استعدادا برياً وبحرياً لم يتوفر بعد، لأَن الانتصار الساحق سبق كل احتمال حتى عند أَصحاب الكثرة من البيزنطيين وأَحلافهم البرابرة.

نقضت ولاءها، كما عرّج في الجنوب - وهذا سيهمنا النظر إليه بعد - على بعض الجهات في شمال السودان نحو مدى تجارة هذه القبائل في الذهَب والرقيق كما تشي بذلك التفاتته - وهو في هذه الوجهة الغربية والجنوبية - إلى «غدامس» وهي من الواحات الغنية بنخيلها في الجنوب الغربي من طرابلس، وعُرف أَهلها برحلاتهم التجارية السودانية، حتى إن بعض المؤرخين المحدثين أَشاروا إلى من كان من متأخري أَهل «غدامس» على معرفة بلغة أَهل السودان.

وكان منتظراً من هذه الأَحداث أَن تؤول الخلافة إلى معاوية بن أَبي سفيان عام 41 هـ/661 م، وإن في الاستعدادات الفطرية لهذا الملك في صورة خليفة، ونزعاته الأموية ما يشير إلى أننا بصدد اتجاه آخر، ووسائل أخرى، وأَسباب لرفع الجمود عن جبهة الامتداد في أَفريقيا، ويمكن تلخيص هذا بأَنه صاحب سياسة عابرة أَكثر مما هو صاحب مبادئ دائمة.

وهكذا نلاحظ أَنه فَصَل ولاية المنطقة المغربية عن ولاية مِصْر، إثر وفاة عمرو بن العاص الذي كان موالياً له في خلافه مع الإمام علي كرّم الله وجهه، وأَصبحت الولاية في المغرب تسير بتعليماته مباشرة. ثم إن أَول ما طالَعَنا به في نطاق التجربة السياسية في الساحة المغربية أَنه استغلّ نقمة أَحد أَتباع ملك الروم «أوليمبوس» الذي دفعته نقمته على مَلِكه إلى التآمر عليه، فانسجم هذا مع نزعة في الأمويين سلائل عبد شمس في الأخذ والعطاء منذ عهد رحلات تجارة أَيام الجاهلية في الصيف والشتاء، فسيّر عام 45 هـ[21] فرقة من ستة عشر أَلف مقاتل بقيادة قائده معاوية

---

21) تاريخ الأمم والملوك ج 1 ص 146 طبع بيروت - الكامل لابن الأثير ج 3، ص 35 - الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى ج 1 ص 36 المطبعة البهية بمصر، الطبعة الأولى.

بن حَـديـج الكِنـدي[22] وبـوصـولهـا لسهـل تـونس جنـوب «قرطـاج» زحف عليهـا الإمبراطور بجيش وأسطول بقيادة «نقفور» المعروف بنفس الاسم في الرواية العربيـة، ولكنـه مـا كاد ينزل عنـد «سـوسـة» حتى ولّى الأدبـار منهـزمـاً، وسُلِّمت «سـوسـة»، و«بنزَرت» و«قابِس» دون قتال، كما استولى ابن حَديج على حصن «جلُولاَ» وهو من أهم الحصون البيزنطية.

وعمد الخليفة معاوية إلى تتويج هذا الزحف بحركة بَحْرية، فسير قـائـده ابن حَـديج الكندي مائتي مركب إلى جزيرة صقِلّيـة بقيـادة عبـد اللـه بن قيس[23] فغزاهـا على مدى شهر قضاه فيها، ثم عـاد إلى أَفريقيـا بينمـا استمر قـائـدُه ابنُ حَـديج في مسيرتـه غرباً إلى أَن فتح «بنْزَرت»، وجزيرة «جَرْبَة»[24].

وحتى هذا الامتداد المديد في أفريقيا المعزّز بالزحف البحري قد استدبره قـائـده ابن حديج، وعاد إلى مصر عودة القادة قبلـه، فنـالـه مـا نـال ابن أَبي سرح من التجريح بالغلط لمجانفة التدبير الذي يقتضيه الانتصار.

وعلى كل حال، فقد أَفادت هذه الحركة أَن هناك عزماً على متابعة المسيرة أَيضا حين يحين الأَوان، والواقع أَن الجانب البيزنطي كان يعرف ما وراء هذه الحركـة البحريـة

22) وتقول الرواية إنه أسندها بالعبادلـة الأربع الـذين من بينهم عبـد اللـه بن الزبير صـاحب السـابقـة في السرايا الإسلامية الأولى، ومن بينهم أيضـا عبـد الملـك بن مروان، وغير هؤلاء العبـادلـة من الأَشراف، وكأنه ائتسى أَيضا بالخليفة ذي النورين ليعطي لبعثته صبغـة التيمن الـديني الـذي تحرص عليـه الأسرة الأموية المنافسة في الاتجاه الديني الصرف الذي يتمسك به بنو هاشم أَصحاب سقاية الحاج في الجاهلية.

23) نهاية الأرب للنويري ج 22 ص 10 ـ الاستقصا ج 1 ص 36، الطبعة البهية بمصر، الطبعة الأولى.

24) المغرب للبكري ص 58 ـ الاستقصا ج 1 ص 36 المطبعة البهية بمصر، الطبعة الأولى.

من استعدادات مبيّتة للأيام المقبلة، ولذلك نلاحظ أن «قنسطانز»، قُسطَنْطين الثاني خليفة هِرقل المعروف بالكبير ترك عاصمته عام 42 هـ الموافق 662، أي في مستهل ولاية معاوية بن أبي سفيان، وجعل إقامته في «روما» و«صقلّية»، ليكون مشرفاً على عمليات المعارك المنتظرة مع المسلمين التي يتعيّن خوضها حفاظاً على أملاكهم الأفريقية، وذلك في الوقت الذي كانوا يصدّون فيه الحملات الإسلامية على الإمبراطورية البيزنطية من ناحية الشام وآسيا الصغرى، فَهُم الآن يتوقعون أن الخطة الإسلامية أصبحت تتحفز لفتح جزيرة صِقلّية، وجنوب إيطاليا، وسواحل البحر الأدْرِياتيكي، فالقصد مبيّت على إدارة الدائرة على القسطنطينية شرقاً وغرباً.

ويدلّ واقع الحال المروي في الصحائف الذهبية لتاريخ الفتوح الإسلامية على أن العمل العربي في أفريقيا قد خرج منذ ولاية معاوية، وقيام دولة الأمويين من عهد الإجراءات الاستطلاعية، والامتداد المتفحص، إلى الاندفاع الحادّ، منذ انصرف معاوية انصرافاً لتشييد الأُسطول الإسلامي الذي يعتبر السلاح الجدي للدفاع والهجوم في مصاولة دولة لها في البحر المتوسط قواعد مشرفة على أمواجه، وقوة حربية ضاربة في شرقه وغربه، ونقْد ذَهَبي متداول معتد به عالمياً في المعاملات التجارية وخصوصا في عالم البحر الأبيض المتوسط، بل إنه فرض سيادته حتى على دولة فارس التي خضعت لواقع سيولته، وحتى أصبح التحرك التجاري في التوريد والتصدير معقودا بالدينار البيزنطي الذي غطّى رنينه على هدير أمواج ذلك البحر الذي عرف بالرومي عن صدق وتقدير في ذلك الحين.

والمعروف أن العرب وإن كانوا قد استولوا على مصر والشام، فقد ظلت التجارة قائمة بينهم وبين البيزنطيين حسبما جاء في نص البلاَذُري في «فتوح البلدان»[25] «إن

25) فتوح البلدان للبلاذُري ص 167.

القراطيس كانت تدخل بلاد الروم من أرض العرب وتأتي من قِبلهم الدنانير». وهناك تفاصيل حول هذا في كتاب «الأموال» لأبي عُبَيد عند كلامه على تجارة أهل الحرب، فقد جاء فيه أن من مذهب عمر رضي الله عنه أنه كان يأخذ من التجار المسلمين من كل مائتين خمسةَ دراهم، ومن أهل الذِّمَّة نصف العشر، ويفرض العشر على تجارة أهل الحرب، وزاد - وهذا هو موضع الحجة في كلامه - أن عمر إنما فرض عليهم العشر لأنهم كانوا يقبضون من التجار المسلمين العشر أيضا حين يقدمون إلى بلادهم. ويقصد بأهل الحرب الرومَ الذين كانوا يتواردون في التجارة، وقد ظلت الشام ومصر مفتوحتين للتجار النصارى من سكان الأسكندرية والسواحل الشامية، وظلت اللغة اليونانية لغة دواوين الخَرَاج، واستمرت دُور ضرْب العُملة البيزنطية في المنطقة العربية تسكّ العملة الذهَبية، وراجت قِطَع النقد البيزنطي والدينار الذهبي بصفة خاصة سكّةً مقبولة متداولة على عهد الأُمويين، وعندما حاولوا ضرب السكة الإسلامية ساروا في ذلك على مراحل، كما ستجيئ الإشارة إلى هذا في سياق قريب[26].

وواضح أن مخطط الحركة لنشر دعوة الإسلام، ومحاربة من صدّ البرابر عنه قد أوحى بهذا الإعداد البحري، كما استدعى معاوية بن أبي سفيان إلى تعيين عقبة بن نافع قائداً جديداً لخبرته بالمنطقة، لأنه شارك في حملات المسلمين مع ابن العاص، ومع عبد الله بن أبي سرح، وقاد عملية الاستطلاع في جميع الحملات، وظلّ مقيماً في تلك المناطق على الدعوة للجهاد، فهو الذي ينتصب كفؤاً لتسيير العمليات الجديدة، وخير مساعد على تنفيذ المخطط الجديد للامتداد في غرب الشمال الأفريقي.

وإذا كانت من هنا بداية الفتح الحقيقي، والسير به قُدماً إلى الأمام لنشر دين الله، بمنجاة من ضرورات الانسحابات المتوالية التي سمّاها بعض المؤرخين الأجانب ارتداداً

26) انظر الكثير من هذه التفاصيل في كتاب الأموال لأبي عُبيد - انظر مجلة دراسات تاريخية التي تصدرها جامعة دمشق العدد 15 و16.

على الأعقاب، وخشية من هزائم حتمية كما عبّر «اندريه جوليان» وهو يتحدث عن معركة «سبيطلة» كما عرفنا في أحد الهوامش منذ لحظات، فقد واكبتها بداية ثانية للعمل الإسلامي عضدت إحداهما الأخرى، وأعني بها تلك الخلفية التي نشّطت خطوات الفاتحين، وقوّت من العمل الإعماري بتوفير أسباب الازدهار، حتى جعلت منه انفجاراً مدينياً واقتصادياً في أرض لا يعرضها الخيال إلا في صورة قوافل التجارة التي تسير وئيدة في كثبان الرمال، وتسيل بها البطاح والوهاد.

وقد هدانا نص فريد لابن عذارى صاحب «البيان المغرب» إلى الخلفية الأساسية التي انبثق منها إشعاع المدينة الإسلامية على الوبر البربري ومخلفات المدر البيزنطي في هذه الأرجاء المغربية، وذلك حين يقول[27] : «كانت توضع بين يدي عبد الله ابن أبي سرح[28] أكوام الذهب والفضة، فقال للأفارقة[☆] من أين لكم هذا ؟ فجعل

27) البيان المغرب ج 1 ص 12.

28) ولعلّ هذه القصة ترجع إلى أهم غزوات ابن أبي سرح التي التحم فيها مع جيش جرجير (كريكوريوس) العرمرم الذي كان يتألف من قبائل بربرية مختلفة وكثرة بيزنطية، وقد كان ذلك في سهل يسمى بعقوبة ـ انظر الكامل لابن الأثير ج 3 ص 34 ـ والعِبَر لابن خلدون ج 6 ص 107. وقد ثبت أنّ ابن أبي سرح قد تعددت غزواته، ولذلك اختلفَت الروايات في تحديد بعض التواريخ كما أشير إليه سابقاً.

☆) وردت كلمة «الأفارق» عند أكثر مؤرّخي الفتوح العربيّة الأُولى في المغرب، وأكثر ما يَرِد في سياق يفيد أنهم غير البربر والرّوم، كما نجد عند ابن خرداذبة وابن عبد الحكم، ومثله عند ابن خلدون (العِبَر 94/6) حيث يذكر ـ اقتباساً عن البكري ـ ما يفيد صراحة أن الأفرنج والأفارقة قاوموا البربر.

ويبقى بعد هذا، السؤالُ عن هويتهم، فنجد ابن دينار في «المؤنس» (ص 18)، يذكر ما في تواريخ النصارى عن مَلِك أفريقيا صاحب قرطاجة، فيُفهَم منه أنه يعتبرهم قرطاجنيين. وعلى كل حال فهُم مذكورون على أنهم أجانب عن البربر، وجرى البكري على أن يُطلق على الأجانب ثلاث كلمات : «المولّد» و«العجمي» و«الأفارق». والمعروف أن المولّد عند الأكثر هو الذي لا ينحدر من أصل عربي، ويدخل فيه من اختلط أصله بالبربرية والرّومية. وعلى كل حال، فالأفارق كانوا من العناصر التي تتكوّن منها البنية السكّانية عند الفتح العربي، فمنهم من أسلم ومنهم من بقي على ما كان عليه.

الرجل منهم يلتمس شيئاً في الأَرض حتى جاء بنواة زيتون وقال : من هذه أصبنا الأَموال، فإن أهل الجُزر والبحر ليس لهم زيت».

ويقول ابن عذارى[29] في موضوع هذا الغنى : «إنّ سَهْم الفارس بعد معركة سبيطلة ثلاثة ألف دينار عيناً، وسهم الراجل ألف دينار». ومن المعروف أن رصيد الروم من الذهب كان في سبيطلة التي كانت عاصمة جرجير يومئذ، كما يَرد في كلام ابن عذارى عن القائد زهير بن قيس البلَوي ـ الذي التحم مع كُسَيلة ـ أنه رأى بأفريقيا مُلكاً عظيماً، وأعني أَن العمل العربي قد انسجم مع استعدادات أهلها التجارية للضرب في الأَرض حيث معادن الذهب والفضة، ومع نشاطهم في تنمية مقدرات وإمكانيات بلادهم الزراعية التي ترمز إليها نواة الزيتون في نص ابن عذارى.

وإذا أَمكن للباحث[30] أن يسجل أن كلا من القبيلتين الكبيرتين «زَنَاتَة» التي كانت تنتشر أَكثر بطونها في المغرب الأَوسط وبعضها في المغرب الأَقصى، وكذا «صَنْهَاجَة» التي انتشر الكثير من قبائلها في أَكثر ربوع المغرب الأَقصى[31]، وأَن لكل من

29) البيان المغرب ج 1 ص 12.

30) انظر مثلا الاصطَخْري في المسالك ص 44 ـ والبكْري في المغرب، ط الجزائر ص 76 وما بعده ـ ونزهة المشتاق ص 88 و 121، وابن خلدون ج 6 ص 203، ج 7 ص 3، 4، 114، 156 ـ ومفاخر البربر المطبوع منه في الرباط ص 46 ـ وأَعمال الأَعلام لابن الخطيب : القسم الثالث ـ والاستقصا للناصري طبع المغرب ج 1 ص 76.

31) هذا التوزيع في المنازل كان على عهد الفتوح العربية، ولا يمكن لأَي مؤرخ أَن يسجل منازل بعينها لقبيلة بربرية أَو عشيرة منها ما لم يحدد تاريخ العهد الذي يتحدث عنه، لأَن القبائل البربرية كانت تتغير منازلها بما فيها القبائل الكبيرة الغنية، فالصغيرة تخضع لعوامل الطقس، وتتبع المراعي، وانتجاع الجهات التي تتوفر على منادح العيش، والكبيرة تتحكم في هجرتها من موقع إلى موقع الحروبُ القائمة فيما بينها، أو مقاصد الفاتحين. ونضرب مثلاً لذلك بالعُبَيديين الذين اقتضت مصالحهم أَن يفتحوا المجال لصنهاجة التي ناصرت دعوتهم، وذلك ليسندوها على خصمها زناتة التي كانت معها في صراع دائم.

القبيلتين فروع من الرحَّل، وفروع من المستقرين الذين شدتهم الزراعة إلى أرضها، ولبعض هؤلاء وهؤلاء منازل تمتد إلى المناطق الجنوبية في الصحراء وما بعدها إلى تخوم ممالك السودان، فلا مندوحة إزاء هذا من القول بأن المستقرين من القبيلتين المنتشرتين هم الذين يهيمنون على تجارة الذهب، وكذا الرقيق بالمقايضة، وأما الرحَّل منهم كقبيلتي «لَمْطَة» وجَزُولَة، فإنما كانوا يقومون بغزوات مفاجئة لمهاجمة القوافل التي تجتاز واحاتهم حسبما يُفهم من البكْري[32] وابن خلدون[33] وياقوت[34].

وكما ترجّح أن الهيمنة الصنْهاجية والزنَاتِية على الذهب بحكم استقرارهما في مناطق قريبة من الصحراء، يترجّح أن «كتَامَة» الصنهاجية كانت تسيطر على مناجم النحاس والحديد في المنطقة الجبلية التي تنزل بها قرب الساحل[35]. وكيفما كانت الوسيلة، فإن أكوام الذهب الواردة في نص ابن عذارى من بضائع القوافل الصحراوية، لن يعني أكثر من أن البربر، سواء كانوا متاجرين أو مغيرين، إنما كانوا يمتحون ما تصل إليه أيديهم من مناجم ذهب الصحراء الأفريقية[36]، ولن يكون المقصود منه غير التِّبْر الطبيعي المصهور على شكل خيوط مظفورة، لم تمسها بعد يد التقنية، لأنهم ما كانوا ليصلوا إليه إلاّ بعد قطع مفازات، ومهامه صحراوية نضبت آبارها، وتاه الدليل فيها، ومع ذلك فقد كان البيزنطيون، وهم الطاعمون الكاسون بين هؤلاء البربر، يأخذون صفايا الغنائم، ومردود التجارة، وبهذا الذهب الذي لا يَدَ

---

32) ص 157 ـ 161.

33) العبر ج 6 ـ ص 240.

34) معجم البلدان.

35) البكْري، طبع الجزائر، ص 83.

36) وكما كان البربر يستغلون مناجم الذهب في السودان، فقد كانوا يستثمرون مناجم الفضة في جبال الأطلس المغربية، ويتحدث التاريخ عن نشاط حركة تصدير قام به فِنيقيُو «لكسوس». وقد بقي احتياطي هذه المناجم يأتي أُكله حتى القرن العاشر الهجري.

لهم في الوصول إليه، استعانوا على مواجهة ظروف الفتح العربي بمنجاة من ضائقة الحرب في ولاياتهم بالشمال الأَفريقي، فظلّ اقتصادهم مزدهراً خلال القرن السابع حسبما هو واضح من قصة الذهب المتراكم التي مرت بنا نقلاً عن ابن عذاري في «البيان المغرب»(37). فظهروا عند الفتح الإسلامي بمظهر اليُسْر، وتعزّز دينارهم في تجارة الأَبيض المتوسط مشرقاً ومغرباً.

أَما بعد الفتح العربي حين أصبحت مناجم الذهب تحت هيمنة المسلمين، فلم يعد الذهب يعني مجرّد خيوط خام مظفورة، وإنما سُخّرت لصهرها تقنيتهم المشرقية التي عُرفت جدواها وعائدتها في استخراج المعادن من «مجانة»(38) شمال شرق «تبسَة»، وهي الوسائل والأَسباب التقنية الشرقية المتطورة التي كان لها الفضل في تعبيد طرق الصحراء، ونكت آبارها التي سهّلت عبورها، وأصبحت مسالكها مشرعة لتجارة الذهب والرقيق، واستخدمت هذه التقنية بوسائلها وموادها الجديدة في مختلف أَنواع الصناعات، وفي حقل الزراعة الذي كان توأم تجارة الذهب والرقيق العامل في خلق الازدهار، والخروج من عهد الوبر إلى عهد المدر.

وتتعين الإشارة إلى أَن الرومان كانوا غير هؤلاء الروم البيزنطين أَمام هذه الكنوز الذهبية، فقد استغلوا المناجم الصحراوية في القرن الرابع الميلادي، ولكن تجارتهم

37) وحتى انْدرِي جُولْيَان لم يَفتْه قصر عمل ابن أبي سرح على مجرّد الغنائم التي دفعت العرب إلى القيام بالغزو، وَوَصف الغنائم بالعظمة وبالكنوز، ولكن فَاتَه أَن يعرف أن العرب قد استطاعوا بهذه الكنوز أَن يقيموا حضارة مزدهرة، وأنهم أحدثوا بها رجة وتغييراً في الدورة الاقتصادية العالمية، وذلك ما عجزت عنه بيزنطة التي ادّخرته لصالحها، ولم تُوفّق توفّق العرب الذين كانوا على عهدهم أصحاب تقنية وعبقرية.

38) كانت تعرف بمدينة المعادن لكثرتها هناك، ومنها منجم للفضة كان تحت تصرف بعض برابرة «لواتة» - البكري ص 145 - وابن خلدون يجعل لواتة في عِداد البتر من البربر، في حين أن ابن حزم يعدّ لواتة من الأَقباط.

صارت إلى تقلص فاختفاء، وظلّت مختفيـة حتى بعـد الفتح البيزنطي لشمال أفريقيـا 533 ـ 535[39]، فلم تستثمر منـاجم الـذهب في السودان جنوب الصحراء على الـوجـه الأكمل إلا في العهد الإسلامي الذي كان فتحاً بمعنى الإبداع والإحياء.

(يتبع)

---

39) مردّ ذلك إلى أن الامبراطورية لم تكن تتوفر على الذهب إلى حدّ كاد يوقعها في أزمة نقـديـة لم تقض على بوادرها إلاّ باحتياطات الذهب في المناطق الشرقية، وأعني سوريـا ومصر. أمـا في الشمال الأفريقي فقد شدّ عليها طرقات أفريقيا شعب من شمال إثيوبيا كان يحتل جنوب مصر.